٢ — ابن قـــلاقس

٥٣٢ — ٥٦٧ ه (١١٣٨ — ١١٧٢ م)

— ٤ —

لشاعرنا مذهب فى الحياة ، اختاره لنفسه ، وارتضاه طريقة يسير عليها ، ذلك المذهب هو اختـــلاس الفرصة ، وانتهاز غفلة الزمان ، فهو قد آمن بأن الدهر لا يحسن مرة الا أساء أخرى ، ولا يمد يداً الا انتزع بشماله ما قدمه بيمينه ، فهو متقلب متلون كالحرباء ، وإذا كانت تلك حالة الدهر ، فمن الخير للمرء أن ينتهز الفرصة التى تسنح له ، فلا يدعها تفلت من يده ، ولينل فيها اللذة التى تهيأت له ، إذ أنه من الخير للمرء ألا يدع نفسه فريسة للدهر يحط عليه بأثقاله ويعضه بنابه ، ثم يأبى المرء إلا أن يساعد الدهر فيزيد السهام سهما ، والجراح جرحا ، وأولى له أن ينتهز غفلة الدهر فاذا نامت عينه : تمتع مادامت تلك العين غافلة ، واستمع إليه حين يقول :

واعطف على خلس اللذات مغتنما   فالدهر فى حربه تلوين حرباء

أما اختلاس اللذات من الناحية الدينية فهو يطمئنك عليها ويخبرك أن هناك الها رؤوفا رحيما لا يضن عليك بالعفو إن أنت اقترفت جرما ثم عدت إليه لابسا ثياب التوبة مرتديا ثياب الاستعطاف ، فلا بأس عليك من ذنب ، ولا ضير عليك من اقتراف معصية ، فاقترف ، واعترف ، فثم كريم   يهب الاقتراف للاعـــتراف

ولقد كان من وسائل سروره التمتع باللذات ، والانصات إلى مغنية جميلة رخيمة الصوت تطربه وتسره ، حتى أصبح له بسبب هـذا الولوع اذن غنائية هيأت له أن ينتقد المغنيات اللاتى لا يحسن من الغناء ، ولا يحسن الا مد الصوت ولو كان متنافرا ، ولا يحسن اتفاق النغمات ، ولا ندرى إن كان شاعرنا قد اتخذ الخروسية من وسائل تمتعه بالحياة ولهوه فيها ، أو أن لهجه بها وتغنيه بذكرها ، وتفننه فى وصفها ، كان ناشئا عن تقليد لا عن عاطفة نحوها ، وبعد . فماذا كان موقف ابن قلاقس إزاء الحياة العملية ؟ وما مذهبه الذى اختطه لنفسه ؟ وهل كان موفقا فى اختياره هذا المذهب ؟

— ٥ —

إن كنت تبغى وطنا   من العلا فاغترب
فالسمر فى غاباتها   معدودة فى القضب
على أن أسعى وما   على نجح الطلب

تلك هى عقيدته فى الحياة العملية ، وذلك هو مذهبه الذى اختاره وارتضاه ، فهو لا يرى العلا تنال إلا بالبعد عن الوطن والتغرب عن الآل ، فى ذلك نيل الأمل وبلوغ المآرب . ولعل ولادته فى ثغر الاسكندرية لها اثر فى ذلك ، على أنه بالرغم من هـذا لا يرى التغرب إلا وسيلة من الوسائل للوصول إلى أطماعه ، فان أخفقت فأن ذلك الاخفاق لا يفت فى عضده ولا يضعضع من قوته ، فعليه أن يسعى ، وما عليه نجح مطالبه ، وشاعرنا لم يكن فى مذهبه ذلك مشرعا فحسب أو قانونيا يلقى القانون إلى الناس ، ولا يتبعه بعمل بل كان قوله ذلك معبرا أصدق تعبير عن حياته العملية كلها ، فتاريخه ينبئنا أنه كان كثير الحركات والأسفار ، لم يقتصر على التنقل فى وطنه ، بل غادره إلى بلاد غير بلاده وآل غير آله

رحل إلى صقلية فى شعبان سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، وصقلية جزيرة قرب ايطاليا كانت تابعة للفاطميين حينا من الزمن طويلا ، إلى أن تغلب عليها روجر النورماندى ، وانتزعها من أيديهم ، وجعلها إمارة مستقلة ، وكان بتلك الجزيرة أيام وصل اليها شاعرنا قائد يسمى أبا القاسم بن حجر ، فاتصل به اتصالا وثيقا ، ومدحه مدحا كثيرا ، وتوثقت بينهما الصلة ، حتى ان شاعرنا ألف له كتابا أسماه الزهر الباسم فى أوصاف أبى القاسم ، ويقال إنه قد أجاد فيه ، ولكن الكتاب لم يصل الينا ، وعبثت به يد الزمان ، وظل شاعرنا لدى أبى القاسم حول عامين ، أراد الرجوع بعدهما إلى بلاده ، وكان فى زمن الشتاء ، فردته الرياح إلى صقلية ، فكتب إلى أبى القاسم المذكور :

أمس (تدخل الجنود)

سقراط — مهلا ايها الجنود .. انا قادم اليكم ... وداعا يازانتيب .. لاتجزعى فسيرعاك الله و ... ... وإذا ماذكرتنى فاذكرى انى لم أعبأ قط بالحياة ولا بالموت بل بالحقيقة التى سأعذب ولا شك من أجلها ....

زانتيب — : ترتمى على مقعد وتنتحب ...

اسماء فهمى

منع الشذا من الوصو ل مع الرسول الى دياري
فأعادني وعلى اختيا ري جاء من غير اختياري

ولم يقتصر شاعرنا في رحلاته على صقلية، بل ذهب الى بلاد المغرب، ومدح صاحبها عبد المؤمن بقصيدة قوية الأسلوب، قوية المعاني، تدل على عظمة من قيلت فيه. وانصت اليه يقول:

عظمت قيمتها مذ علقت بأمير المؤمنين الأعظم
كعبة المدن التي من زارها بات في أمن حمام الحرم
قبلة الدين التي حج لها خلقه: من كافر أو مسلم
قائد الجيش الذي من راعه باسمه قبل التلاقي يهزم
يا إماما خضع الدهر له فأطاعته رقاب الأمم... الخ.

ثم عاد الى وطنه، ولكنه لم يستقر به المقام طويلا حتى دفعته النوى إلى بلاد اليمن، ودخل مدينة عدن، واتصل بأبي الفرج ياسر بن بلال وزير البلاد اليمنية، فأحسن الوزير صلته، وأجزل عطيته، ثم فارقه عائدا إلى الديار المصرية فانكسر المركب به وغرق جميع ما كان معه بالقرب من دهلك، فعاد الى ياسر، ومدحه بقصيدة بدأها بقوله:

صدرنا وقد نادى السماح بنا ردوا فعدنا إلى مغناك، والعود أحمد
وجاذبنا للأهل شوق يقيمنا وشوق لمغنينا عن الأهل يقعد

ثم أنشده قصيدة أخرى يصف فيها غرقه، وما أصابه في البحر
غير أن هذا الحادث لم يجعله يسخط على السفر والاغتراب كما قد يظن، فقد رأيناه بعد أن نجا يكرر مذهبه ويؤكده، ويقول

سافر إذا حاولت قدرا سار الهلال فصار بدرا
والماء يكسب ما جرى طيبا، ويخبث ما استقرا
وبنقلة الدرر النفيسة بدلت بالبحر نحرا

مما يدلنا على قوة عزمه، وتغلغل مبدإ السفر والارتحال في فؤاده، ولقد هداه حادث الغرق إلى أنه من الخطأ تشبيه ممدوحه بالبحر إذ يقول:

وغلطت في تشبيهه بالبحر فاللهم غفرا
أو ليس نلت بذا غنى جما، ونلت بذاك فقرا؟

ولعل شاعرنا حينما ألقت به يد الأمواج إلى جزيرة دهلك لم يأنس بالمقام فيها، ولم يجد من حاكمها مالك بن شداد برا ولا رحمة، لذلك هجاها، وصورها بصورة جهنم بدليل أن خازنها مالك (ودهلك جزيرة بين بلاد اليمن وبلاد الحبشة) وظلت أيدي النوى تتقاذفه حتى ألقت به في عيذاب، وهي بليدة على شاطئ بحر جدة يعدى منها الركب المصري المتوجه إلى الحجاز عن طريق قوص، وهناك وافته منيته بعد أن بلغ من العمر خمسا وثلاثين سنة.

بالرغم من كثرة أسفار شاعرنا، وكثرة تنقله بين الأوطان المختلفة كان حنينه وشوقه الى مصر لايفتران: ففي صقلية يذكر مصر، وفي غيرها يذكر مصر، ويذكر آله وقومه، ويذكر ما كان له في تلك الديار: من صحب وأصدقاء فيحن إليهم ويقول:

يا إخوتي، ولنا من ودنا نسب على تباين آباء وأجداد
متى تنور آفاق المنارة لي بكوكب في ظلام الليل وقاد
متى تقر ديار الظاعنين بهم والدهر يسعفهم بالماء والزاد

ويقول مخاطبا أبا القاسم بصقلية:

وعليك السلام مني، فاني عنك غاد أو رائح أو ساري
شاقني الأهل والديار وذو البعد معنى بأهله والديار

وتلك حالة طبيعية يحسها الرجل المفارق لوطنه، فهو يحن إليه دائما، ويشتاق دائما.

(البقية في العدد القادم) أحمد أحمد بدوي

قلم خضير
بريشة ذهب عيار ١٤
مضمون ٣ سنوات
المستعملة الحكومات الشرقية
مكتبة خضير بشارع عبد العزيز بمصر